اصل الكتابة

لجناب جرجي افندي زيدان (١)

ايها السادة

يقودنا الاستدلال الى الحكم بان الانسان قد عاش ازمنة طويلة في ابسط الحالات حيث لم يكن في احتياج الى الكتابة . وانه تدرج اليها انقياداً الى دواعي الحال . وانها كانت ترافقه في سيره البطيء نحو التمدن حتى بلغ وبلغت ما هما عليه الآن

والكتابة وان كنّا لا نشعر بسامي منزلتها وحقيقة نسبتها الى احتياجاتنا فقد طالما توهّم فيها قوم عجائب الافعال دلالةً على عظم اعتبارهم لها ولا ريب ان هذه الاوهام قد غرست فيهم عند اول تعلمهم اياها اذ رأوا حالتهم بعدها ارقى مما كانت قبلاً بما لا يناس . ومرادي الآن ان اذكر الطريقة الطبيعية لاختراع الكتابة ثم استقري ما لدينا من انواعها وانتهي بها الى اصلها اذا امكن . والتزم في جميع ذلك جانب الاختصار بقدر الامكان

الطريقة الطبيعية لاختراع الكتابة . لنفرض عائلة من البشر في ابسط احوال معيشتها تأوي الكهوف وتقتات بنبات الارض وحيوان البر . فهذه العائلة لا تحتاج في اول امرها الى الكتابة على انها لا تلبث حتى ترى نفسها في احتياج اليها متى اراد شيخها او اميرها ان يخابر شيخ قبيلة أخرى . ومعلوم ان الباعث على الكتابة هو ارادة نقل المعاني من مكان الى آخر . فاول ما يخطر لهذا الشيخ على ما أرى هو استعمال الرموز كما اذا اراد ابلاغ الشيخ الآخر انه مسرور منه فيرسل له حمامة دلالة على سلامة نيته واذا اراد خلاف ذلك فيرسل له حيواناً او اناء يرمز الى العداوة في اصطلاحاتهم . وهذا جارٍ حتى الآن بين المتوحشين ويقرب منه الكتابة المسماة كويبوس وهي عبارة عن تعقيد الخيوط عقداً تختلف شكلاً وعدداً باختلاف المعاني المقصودة واستعمالها كان جارياً في المكسيك وبيرو عند افتتاحها . ويقال ان قبائل كثيرة كانت تتراسل بواسطة هذه الخيوط وان سجلات مملكة انكاس الرسمية كانت محفوظة على هيئة دفاتر من الخيوط المعقدة وان ذلك كان جارياً في الصين قبل ان حكم فيها الامبراطور فوهي . فالاقرب الى العقل ان تلك العائلة تبتدئ في الكتابة على الصورة المتقدمة

ثم لنفرض انه بينما كان شيخها ذاهباً الى الصيد كجاري عادته وثب عليه احد ضارٍ وافترسه فعند اطلاع افراد هذه العائلة على هذا الحادث الذي لم يمرّ عليهم مثله يشعظمونه ويودون ان

(١) خطبة تلاها في جمعية شمس البر ببيروت

يحفظ تذكارًا للذين بعدهم وتنبيهًا لهم . وقد لا يتيسر لهم التعبير عنها بما لديهم من الرموز فربما اهتدوا بعد اجهاد الفكر الى طريقة تعد من اعظم الاختراعات عندهم وهي رسم تلك الحادثة كما شاهدوها فيرسمون الشيخ مضرجًا بدمائه وفوقه اسد مصرّ على ايذائه . والارجح انهم ينقشون ذلك على صخر في تلك الجهة . ثم يتبع جميع افرادهم هذه الطريقة فاذا ارادوا ان يذكروا رجلاً رسموا صورته وكذا اذا ارادوا ان يذكروا اسدًا او جبلاً وهلمَّ جرًّا

ولنتتبع سير هذه العائلة التي صار يحق لنا تسميتها قبيلة فنجدها تمارس هذا النوع من الصور للتعبير عن الافكار حتى يبدو لها معانٍ لا يمكنها التعبير عنها بالصور . وذلك انه بينما هي راتعة في بحبوحة الامن هجم عليها لصوص وسلبوها مالها ولنفرض انهم نزلوا صباحًا من جبل وانهم استمروا في السلب حتى الظهيرة ثم عادوا الى حيث اتوا . فهذه الحادثة اعظم لديهم من تلك ولا يمكنهم تدوينها اذا اقتصروا على ما لديهم من الرسوم فيتداولون في المسألة ويتشاورون فيهتدون اخيرًا على هذه الصورة

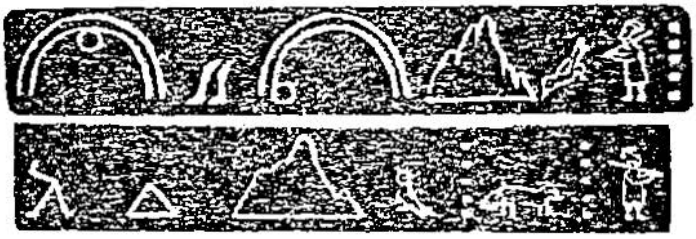

الشكل الاول جا عا

فيعبرون بصورة الرجل المسلح عن العدو او اللص وبالنقط الخمس عن ان الاعداء كانوا كثيرين وبالطير الساقط عن النزول وبصورة الجبل عن الجبل نفسه وبنصف الدائرة عن الجلد وبالدائرة الصغيرة عند طرفه عن الشمس وبهما معًا عن الصباح وبالساقين عن الاستمرار وبنصف الدائرة والشمس في وسطه عن نصف النهار اي الظهيرة وبصورة الرجل وراس الغنم متجهين نحو اليمين عن اللصوص عائدين بالغنيمة وبالطير صاعدًا عن صعودهم الجبل . والفرق بين هذه الكتابة والتي قبلها واضح جدًا فان رسم الرجل المسلح للدلالة على العدو دلالة ذاتية مثل رسم الاسد للدلالة عليه واما رسم الطائر ساقطًا للدلالة على النزول من الجبل ورسمه صاعدًا للدلالة على الصعود ورسم الساقين للدلالة على الاستمرار فدلالة معنوية لا ذاتية وهذه هي الدرجة الثالثة من درجات الكتابة وهي كثيرة الاستعمال الآن في اماكن مختلفة . وقد تفنن فيها بعض القبائل الناطقة في بلاد المكسيك بحيث اصبحوا قادرين على التعبير بها عن كل ما يخطر لهم تقريبًا .

ومن طرق تفننهم تركيب هذه الرسوم معًا للتعبير عن معنى جديد كرسم العين والماء بقربها للدلالة على الدمع والاذن بين بابين للدلالة على الاصغاء والطير ومعه للدلالة على التغريد

ولم تقف الكتابة عند هذا الحد لان هذا النوع منها بعد ان شاع استعماله بين افراد تلك القبيلة رأوا فيه كثيرًا من التكلف وعلموا انه يقتضي لهم للتعبير عن جميع ما يتلفظون به رسوم تتجاوز الآلاف عدًا . فحاولوا ايجاد طريقة تخلصهم من هذه الاثقال . فالاقرب الى العقل وهو الواقع انهم اتخذوا صور الاشياء للدلالة على اول مقطع من اسمائها فاستعملوا صورة الرجل المسلح المراد به العدو للدلالة على اول مقطع من معناهُ اي على صوت العين المفتوحة وصورة الجبل على صوت الجيم المفتوحة وهلمَّ جرًّا . ولا يخفى ما في هذه الطريقة من الاقتصاد والاختصار لان صورة الجبل كانت تستعمل للدلالة على معنى واحد فقط فصار يمكن ان تستعمل لكل لفظة فيها مقطع "جا" كجاع وجال وجلس وجعل الخ وهذه هي الدرجة الرابعة وهي كثيرة الوجود في اعصر مختلفة واكثر ما حفرهُ المصريون القدماء على هياكلهم البائدة رمزًا عن عظمتهم انما هو من هذا النوع . ولم يزل بعض الامم يستعمله حتى يومنا هذا . ومما لا يخفى الذكر ان المصريين استمروا على استعمال الصور الذاتية مع هذا النوع والمظنون انهم كانوا يفعلون ذلك خوفًا من الالتباس

ثم ترقوا في كيفية رسم هذه المقاطع لانهم استثقلوا كتابتها رسومًا فصاروا يغيرون في شكلها ما يسهل عليهم كتابتها . فبدلاً عن رسم الجبل والرجل المسلح رسمًا مميزًا للدلالة على لفظ جا وعا رسموها كما في آخر الشكل الاول وهكذا فيما بقي . و بعد زمان تنوسي اصل هذه الصور او المقاطع فصارت تحسب انها علامات وضعت للدلالة على مقاطع الصوت . وهذه هي الدرجة الخامسة

ولم يعد بين هذه الدرجة وما هي عليهِ الكتابة الآن الأخطوة واحدة وهي اختراع الحركات . وقد قادهم الاقتصاد الى ذلك لانهم رأوا انهُ في استعمالهم علامة جا للدلالة على صوت الجيم فقط واستعمال علامة أخرى للدلالة على الفتحة او الالف غنى عن كثير من العلامات فتصير علامة جا لجا وجو وجي بالحاقها بالحركة اللازمة ولا يخفى عليكم ما في ذلك من الاقتصاد لان العلامات اللازمة لجميع مقاطع اللغظ لا تنقص عن ٨٣ عدًا كما هو الحال في احرف اللغة الحبشية . اما معدل حروف اللغات المستغنية عن الحركات فلا يتجاوز ٣٠ وهذا هو الحال في اكثر الحروف المستعملة بين الامم المتمدنة

وخلاصة ما تقدم ان الكتابة مرت قبل ان وصلت الى ما هي عليهِ الآن على اطوار ستة وهي الدور الرمزي والصور الذاتية والصور المعنوية والصور المقطعية والانتقال من الصور الى العلامات واختراع الحركات

هذا ما وصلنا اليه بطريق الافتراض . فاسمحوا لي ان استقري ما لدينا من انواع الكتابة واتبعها الى اصل نشأتها لعلنا نراها مطابقة لما فرضنا فاقول

ان لغات العالم تنقسم الى ثلاثة اقسام كبرى * الاول يشتمل على اللغات السامية واشهرها العربية والعبرانية والسريانية والكلدانية والحبشية والسامرية من اللغات الحية . والفينيقية والبابلية من اللغات الميتة وكلٌّ منها يكتب باحرف خاصة به حسب الظاهر . والثاني يشتمل على اللغات الآرية وهي تنقسم الى جنوبية يتكلم بها في الهند وبلاد فارس والكتابة فيها بالحروف العربية بعد افتتاح العرب لها (الا اللغة الهندية القديمة المعروفة بالسنسكريتية) وشمالية وهي تشتمل على جميع لغات اوربا وقسم عظيم من اميركا وكتابتها بالحروف اليونانية واللاتينية (او الرومانية) والسلافية وجميعها تعود الى اليونانية لانها مصدرها . والثالث يشتمل اللغات الطورانية والقسم المهم منها هو التركي وكتابته بالحروف العربية . وبالنتيجة يمكننا حصر اشكال ما يستعمل من الحروف الآن في ستة وهي العربية والعبرانية والسريانية والكلدانية والحبشية والسامرية واليونانية وهذه الاشكال الستة من اصل واحد . اما الفينيقية والبابلية والسنسكريتية والمصرية والصينية فسيأتي الكلام عليها . وبقيت لغات أخرى تكتب بحروف مخالفة ولكنها قليلة الانتشار فلا التفات اليها

اما الادلة على وحدة اصل الاشكال الستة المذكورة فاثنان

اولها اسماء الحروف فانها واحدة في الجميع ولو تعددت اشكالها ففي العربية بنال ألف باء جيم دال . . . وفي العبرانية والسامرية ألف بيث جمل دالث . . . وفي السريانية ألاف بيث جومال درلات . . . وفي الحبشية ألف بيث جمل دن . . . وفي اليونانية الفا فيتا غما دلتا . وهكذا في بقية الحروف

والثاني ترتيبها فالالف ينطق بها اولاً في جميع اللغات والباء ثانيها ثم الجيم ثم الدال وهكذا في الجميع وما يظهر من مخالفة ذلك بتغيير اسماء بعض الحروف واوضاعها وزيادة حروف بينها كما في العربية والحبشية واليونانية فعارض لا يعتد به

ونخرج من هذين الدليلين ان هذه الحروف ترتبت ورتبت قبل ان شاعت لانه لا يتيسر للجماعة ايجادها على هذه الصورة من المشابهة لو وضعت كل امة حروف لغتها على حدة . فهل لاسمائها معنى يستدل منه على اللغة التي استعملتها اولاً . والجواب نعم لان هذه الاسماء عبرانية الاصل واكلٌ منها معنى مستقل فان لفظة ألف معناها ثور وبيث بيت وجمل جمل ودالث باب وهلم جرًّا . ولا ينتج من ذلك ان الحروف العبرانية هي الاصل لان العبرانيين لم يذكر عنهم التاريخ ما يفتح لنا بابًا لنسبتها اليهم غير ان المؤرخين نقلوا الينا ان الكتابة كانت عند الفينيقيين في نحو القرن

العاشر قبل المسيح وانهم علموها لليونانيين ولبقية الشعوب وذلك لكثرة ما كان بينهم وبين الامم من العلاقات التجارية والعلمية والصناعية . فلننظر اذا كان بين هذه القضية وما ذكر عن اسماء الحروف مناقضة . والحقيقة ان لا مناقضة هناك اذ اللغة الفينيقية هي حليفة العبرانية واسماء الحروف في اللغتين واحدة ومعانيها ودلالتها واحدة ايضاً فيهما . فلنبحث اذاً عن الاوجه التي ترجح لنا نسبة اصل الكتابة الى الفينيقيين . ولنذكر اولاً سبب تسمية هذه الحروف بالاسماء المذكورة فنقول

لا ريب ان هذه الالفاظ لم تختر من بين جميع الفاظ اللغة عبثاً بل الارجح ان صور مسمياتها مشابهة لصور الحروف نفسها وهذا هو الواقع في اللغة الفينيقية لان الالف فيها تشبه في شكلها ثوراً والباء مربعة تقريباً كالبيت والجيم يقرب شكلها من عنق الجمل والدال مثلثة الشكل تشبه باب الخيمة التي كانت تستعمل في تلك الايام وهكذا لو تتبعنا بقية الحروف فيرجح ان الحروف الفينيقية هي اصل ما يكتب به المتمدنون الآن

وهنا سؤال آخر وهو هل اوجد الفينيقيون هذه الكتابة ام اخذوها عن غيرهم . فقد تبين مما تقدم ان الحروف لم توجد دفعة واحدة على الصورة التي كانت بها عند الفينيقيين بل لا بد من تدرجها من الصور الى العلامات ولا نرى اثراً للكتابة الصورية عند الفينيقيين فيقتضي اذاً انهم اخذوها عن امة اخرى كتبت قبلهم . والاقرب الى العقل انهم اخذوها عن المصريين فتعلموا منهم الكتابة بالحروف الهيراتية التي كان يستعملها المصريون قبل المسيح بازمان غير معلومة تماماً وغيروا في شكلها ما سهل عليهم كتابتها ثم وزعوها على الامم بالتدريج واول من تعلمها منهم اليونانيون

ومن يتجول في الديار المصرية لا سيما في مصر العليا ويتمعن في الكتابة المرسومة على هياكل المصريين القدماء يرى ان بعضها في الدور الثالث ومعظمها في الدور الرابع اعني انها متقطعة وتسمى كتابة "هيروغليفية" وهي قديمة العهد جداً ويقال ان منها ما كتب قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة . غير ان المصريين اختصروا في رسمها في زمان لا نعلمه اي نقلوها من الدور الرابع الى الدور الخامس فدعيت كتابة هيراتية وهاصور بعض الحروف من اللغات الستة مع ما يقابلها من الحروف الفينيقية والعبرانية والمصرية اي الهيروغليفية (على الوجه التالي) فان المشابهة ظاهرة فيها حتى لا يبعد الحكم انها من اصل واحد وان هذا الاصل هو الحروف المصرية . فالمصريون هم الذين استنبطوا الكتابة

ربما لاح ان بين هذه الاشكال بوناً لا يسمح معه الحكم بوحدة اصلها . لكن هذه الحروف توزعت على الامم يوم لم يكن هناك وسائط لحفظ شكلها الاصلي كالطباعة او ما شاكل بل كانت

عرضة لتحريف الكتّاب والنساخ تبعاً لمقتضيات الحال ويسهل علينا تصور مقدار ما كانت معرضة له من التحريف اذا نظرنا الى حالة الحروف العربية الحاضرة فانها تختلف شكلاً باختلاف المكان والزمان فلها شكل في الجزائر وآخر في تونس وآخر في بلاد فارس وآخر في الشام وكلها غير الشكل الكوفي المشهور. وأغرب من ذلك اننا في المدينة الواحدة نكتب اشكالاً مختلفة. بل الفرد الواحد منا يكتب في السطر الواحد اشكالاً. ولو لم تكن للحروف المطبوعة صورة في ذهننا نصلح بها ما نعكسه لكانت حالتنا من هذا القبيل غير ما هي عليه الآن

الشكل الثاني

اما الحروف السنسكريتية والبابلية المعروفة بالمسمارية فنيها اقوال فمن قائل ان حروف كلٍّ منها وجدت على حدة ومن قائل ان السنسكريتية هي الاصل والبابلية فرع منها وقائل ان المصرية اصل لكليهما معاً. وقد لاحظ احد اللغويين الفرنسويين ان بين الحروف الصينية والمصرية مشابهة بحيث يرجح ان الواحدة مأخوذة عن الاخرى والله اعلم

اما الاحرف القبطية فهي من الفينيقية اصلاً لكنها انتت مصر عن طريق اليونان

النتيجة * يستنتج مما تقدم ان الكتابة مهما تعددت اشكالها وانواعها فهي من اصل واحد نما على ضفاف النيل في ازمان لا تعرف تماماً ومنه توزع على المسكونة عن يد الفينيقيين الذين قطنوا هذه الديار (سورية) قبل المسيح باجيال وانها مهما كانت عليه الآن من الاتقان فقد نشأت في ابسط الاشكال للدلالة على ابسط المعاني ثم نمت وتفرعت وأنتست فصارت انواعاً متعددة تبعاً لناموس الارتقاء العام